يريد اللّه بكم اليسر

د . محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد: فيا أيها المسلمون يقول الله جلَّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ويقول جلَّ شأنه:﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ ويقول النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري:"يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا " ويقول: "إن الدين يسر ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه"

أيها المسلمون: ها هو ذا شهر رمضان قد أطل علينا، وما هو إلا يوم أو يومان ونكون ضيوفاً على مائدته، نحل على كرم الله عزَّ وجل وعطائه وإحسانه في هذا الشهر المبارك، الذي يمر بنا كل سنة مرة يطوف بنا تسعة وعشرين يوماً أو ثلاثين، تمر مروراً سريعاً كما يمر العمر سريعاً، لاحظوا في الآية التي تلوتها كيف أن الله عزَّ وجل ربط بين بين أمور فجعلها مبادئ راسخة يدعو من خلالها إلى أمور ما ينبغي أن تغيب عن أذهاننا، نحن اليوم بأمس الحاجة إليها، شهر رمضان هذا الشهر الوحيد الذي ورد ذكره في كتاب الله، والليلة الوحيدة التي ورد ذكرها بعينها في كتاب الله، والليلة الوحيدة التي ورد ذكرها بعينها في كتاب الله هي ليلة من هذا الشهر العظيم قدره وعظيم الإحسان الذي يغمر العباد في هذا الشهر، لكن الله عزَّ وجل هنا أشار إلى مزية متميزة خاصة لهذا الشهر هي الذي أنزل فيه القرآن، هذا الربط بين كتاب الله عزَّ وجل النور الذي يهدي إلى الطريق المستقيم إلى طريق السعادة إلى طريق الهداية إلى طريق الخير هو الذي أشار إلى مزية هذا الشهر أن الله أنزل فيه القرآن، أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، يتنزل بها سيدنا جبريل وفق المناسبات التي أراد الله عزَّ وجل أن يربط بين المناسبة وبين تلك الآيات، وتابعوا الحديث عن هذا الشهر ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ من حضر ثبوت

وولادة هذا الشهر فليصمه ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فشق عليه الصوم بسبب المرض أو السفر ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ بوسعه أن يقضي تلك الأيام ﴿ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ إنه مبدأ عام، وهو سمة من سمات ديننا، ومبدأ من مبادئ شريعتنا وميزة يمتاز بها هدي ربنا ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وهذا هو شأن ديننا إن هذا الدين يسر، هكذا يقول النبي ﷺ: "ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه" لن يخالف منهج هذا الدين أحد إلا قضى بذلك على نفسه وبين ضلاله في المسلك الذي يسلكه، هذا الدين دين التيسير، دين التبشير، دين الرحمة، دين العطاء، دين الإحسان، دين المحبة، دين التوادد والتحابب والتعاطف، وليس دين التنفير، ليس دين التعسير، ليس دين التشدد، ليس ديناً يأمر بالشر أو يأمر بالإرهاب أو يأمر بالعنف؛ بل إن النبي ﷺ يقول: "إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه " "إن الله يحب الرفق في الأمر كله" ما قال: يحب العنف في الأمر كله، هذا ما ينبغي أن نعرفه عندما يبدأ هذا الشهر من سمات هذا الدين لا من سمات هذا الشهر وحده، إن سمة هذا الإسلام أنه أتى بالبشارة وليس بالتخويف ولا بالعنف ولا بالغلظة، بل قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ هناك من يقول عن ديننا هذا إن دينكم هذا يعبر عن نفسه: دين القتل دين العنف دين الإرهاب دين السيف، لا يفهم إلا بلغة السيف، وجوهٌ مكفهرة ومشاهد منفرة، يريدون أن يعرضوا الإسلام من خلالها ليكون أثر ذلك في نفوس الناس النفور من هذا الدين، الهروب من هذا الإسلام، والخوف والهلع منه، هناك من أتى بهؤلاء وقدمهم لمجتمعنا فكانوا وباءً عليه ، وكانوا وباءً على مجتمعنا.

سمة هذا الإسلام [يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر] لكنهم يأتون ليقدموا لنا إسلاماً يريد العسر ولا يريد اليسر، الله تعالى يقول:﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ قدموا لنا إسلاماً فظاً غليظاً لينفض الناس عن هذا الإسلام ولينفروا من مبادئه، ولتنبث في مشاعرهم أحاسيس الكراهية والخوف من كلمة **الإسلام**، إنه إسلام صنعته أمريكا، إنه إسلام صنعته الصهيونية، يمزقون هذه الأمة من حيث أمرهم الله عزَّ وجل بالوحدة، ويشتتون صفها في الوقت الذي يأمر فيه الله عزَّ وجل أبناء هذه الأمة بالتحابب والتوادد والتعاطف والتراحم، أما التراحم فهو أمر مفقود لديهم، أما التعاطف فهي لغة

مهجورة في معاجمهم. إنه أمرٌ يبعث على التساؤل، أهو الإسلام الذي أنزله الله؟! لاحظ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ نحن نعرف الإسلام من خلال كتاب الله، لا من خلال المستوردات من هنا وهناك، لا من خلال هؤلاء الذين استوردوا من أقاصي الأرض ليبثوا في هذه المنطقة أفظع أنواع الإرهاب والخوف والفزع، ولينشروا في أوصال هذا المجتمع معنى الكراهية ومعنى التفرق، أين نحن من قوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾؟! لسان حالهم يقول: تفرقوا ولا تعتصموا، اختلفوا ولا تتفقوا، دخلوا بهوية واحدة وهاهم هويات متناحرة، والشعب والأمة تذهب بين أقدامهم ضحايا خلافاتهم ونزاعاتهم وشقاقهم، بضاعة مستوردة غريبة عن ديننا، غريبة عن ذوقنا، غريبة عن نهج نبينا ﷺ الذي يقول: "بعثت بالحنيفية السمحة" هذا ديننا حنيفية سمحاء، وليس تطرفاً ولا قسوة ولا شدة، **أقول**: إن أي فئة من فئات المسلمين تبث مشاعر الكراهية فيما بين أبناء الأمة، وتثير أسباب النزاع بين فئاتها تنال من سلفنا الصالح وتنال من هدي نبينا ﷺ فيما أمر به وتناقض مسار هذا الدين، أي فئة تلغي الآخرين لتجعل من نفسها وصية على عقيدة هذه الأمة على سلوك هذه الأمة على وحدة كلمة هذه الأمة، هي فئة تعزل نفسها وتخالف هدي ربها، وتناقض منهج شريعتنا، وما ينبغي أن نضل في مسالك هؤلاء ولا أولئك، نحن على ما أمر به الله تعالى، وعلى ما هدانا إليه النبي ﷺ، الذي يقول: "إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه" أجل لقد شوهوا كما وصف النبي ﷺ شوهوا مبادئ هذا الدين، أي فئة وأي طيف من أطياف المسلمين يعمد إلى تمزيق الصف وتفتيت الكلمة، وبث مشاعر الكراهية بين المسلمين بدلا من نشر أسباب الألفة والمحبة فيما بينهم، أي فئة تسعى لنشر معاني الشدة والتزمت والتشدد في الأحكام ووصف الآخرين بالكفر والاستئثار بوصف الهداية، فئة غريبة عن هذا الدين غريبة عن هذه الأمة، وعلينا أن نحكم بعقولنا وبما تعلمناه من كتاب ربنا ومن سنة نبينا ﷺ أن الإسلام يحكم عليهم وليسوا هم الذين يحكمون على الإسلام، وأن الإسلام هو المرجع وليسوا هم، أي فئة من الفئات تريد أن تستأثر لنفسها الهداية وتصف الآخرين بالضلال هي الضالة التي تعزل نفسها والأمة بخير، روى أبو داود قال: حدثنا عمرو بن عثمان قال:حدثنا بقية عن أرطأ قال: حدثني أبو عون قال: «ربما اختلف الناس في الأمر – هذا كلامٌ من الصدر الأول وليس من هذا العصر – ربما اختلف

الناس في الأمر وكلاهما له الحق – أي أن الخلاف ممكن على وجهين كلاهما حق، وهذا الأمر موجود في المذاهب الأربعة وفي المذاهب الفقهية الإسلامية كلها، يختلفون ويصلي بعضهم خلف بعض لأنهم جميعاً على حق، واختلاف الفهوم في ديننا وليس نزاعاً بين أبنائه، لكنهم يريدون أن يحولوه إلى نزاع – قال: فاختلاف الفقهاء يا أخي رحمك الله في فروع الأحكام وفضائل السنن رحمة من الله بعباده ن والموفق منهم مأجور، والمجتهد في طلب الحق إن أخطأه غير مأزور – أي ليس عليه وزر بل له أجراً – وهو يحسن نيته، وكونه في جملة الجماعة في أصل الاعتقاد والشريعة مأجور – قال النبي ﷺ: "بعثت بالحنيفية السمحة" – وإن تأول متأول من الفقهاء مذهباً في مسألة من الأحكام خالف فيها الإجماع – لم يخالف زمناً ثانياً – وقعد عنه فيها الاتباع كان منتهى القول – أي لك أقصى ما يمكن أن تصف هذا الإنسان به – منتهى القول بالعتب عليه، أخطأت » لا يقال له كفرت ولا جحدت ولا ألحدت لأن أصله موافق للشريعة وغير خارج عن الجماعة في الديانة، هذا ما علمنا إياه سلفنا الصالح، وهذا ما تعلمه السلف الصالح من هدي كتاب الله وسنة نبينا ﷺ اختلف الصحابة في عصر النبوة، فأقر خلافهم ولم يلغ رأياً مقابل رأي مادام الأمر يعود إلى أصل ، عندما قال النبي ﷺ: " لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة " فَهِم البعض ذلك أن عليه أن يصلي العصر في بني قريظة أياً كان الوقت، وفهم الآخرون أن عليهم أن يسرعوا ليدركوا وقت العصر في بني قريظة، فلما شارف الوقت على الانتهاء ذهب الفريق الثاني وأحرم بالصلاة، اعترض الفريق الأول فقال: النبي ﷺ قال: "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة" أخذ باللفظ، إلا أنهم قالوا: إنما قال ذلك لكي نستعجل فندرك وقت العصر في بني قريظة، والذين أخذوا الكلام الأول أصروا على موقفهم هذا الذي فهموه، والذين أخذوا بالفهم الثاني صلوا، ولما بلغوا بني قريظة عرضوا المسألة التي اختلفوا فيها على النبي ﷺ فأقر الفريقين، لم يقل لأحد الفريقين ألحدت ولا كفرت ولا ابتدعت، بل وجد أن كلا الفريقين اجتهد رأيه في أمر يحتمل كلاً من الفهمين. هذا ديننا، ديننا سعة، ديننا لا يلغي الآخر، ديننا فيه انطلاق من العقل ضمن النص، أما الاتجاه إلى وصف المخالف بالكفر لتسويغ سفك دمه وقتله و العمل على تحطيمه فهو أمر مخالف، مخالف لكتاب الله، وهذا الذي يوصف عمله بأنه خروج عن الملة، أنا لا أكفره، ولكن عمله يفضي بنفسه إلى الكفر، هذا

الأمر هو العدل الذي أمر النبي ﷺ فالمخالفة إلى هذا الاتجاه خطأ والمخالفة إلى الاتجاه الآخر خطأ، إلغاء الاجتهاد في نصوص الشريعة، والتجرؤ على أئمتنا وسلفنا الصالح وأصحاب رسول الله ﷺ أمر ليس من ديننا وأمر فيه خروج عن طبيعة منهجنا، وينبغي أن نكون على حذر من آفة قدمت إلى بلانا، وأعملت سيف البطش بين أبناء أمتنا بحجة أو بأخرى، لا ينبغي أن نسمح لأنفسنا أن نكون طرفاً الجانب أو لذلك الجانب، نحن مع كتاب الله وهدي رسول الله ﷺ وما كان عليه الأئمة الأربعة، الخلفاء الأربعة الراشدون سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي، وعامة أصحاب رسول اللهﷺ بهذا أمرنا كتاب الله وبهذا أمرنا رسول الله، وبهذا سار الذين نهل من معين النبوة في وحدة هذه الأمة و جمع كلمتها ونشر معاني اليسر والمحبة والتوادد والتعاطف بين أبنائها .

ننتظر قدوم شهر رمضان غداً، فإن غُمّ علينا الهلال أتممنا شعبان ثلاثين، بهذا اتى هدي النبي ﷺ وبهذا أمر كتاب الله عزَّ وجل، ومسألة الهلال وثبوت الهلال مسألة طال الحديث حولها، وهي تندرج في الأصل الذي أشرت إليه أن في الخلاف سعة، ونحن إنما نمتثل بما أمر به القاضي، وقد قال الفقهاء إن حكم الحاكم يلغي الخلاف، فعندما يتجه قضاء القاضي إلى الأخذ بقول السادة الحنفية إن ثبوت الشهر في بلدٍ ما يلزم بقية البلاد، فنحن مع ذلك القاضي الذي قال بذلك، وإن كان القاضي قد اتجه إلى القول الذي ذهب إليه السادة الشافعية من وافقهم على أن لكل بلد مطلعه، فإن كان قد ثبت في بلد ما ولم يثبت في بلدنا، فإن قضاء ذلك القاضي ملزم لنا، والمسألة ليست نزاع سياسياً تتجاذبه الخلافات والاتجاهات السياسية، المسألة فيها سعة وفيها رحمة، ولنا أن نتخذ من أي من المذهبين مذهباً. لكن على أن يكون ذلك مندرجاً فيما قضى به القاضي، فقضاء القاضي ملزمٌ للأمة، ونحن في ظل قضاء شرعي ملزم لنا، فلا نتبع الهوى، ولنتبع حكم الشريعة في ذلك، على أن أهواء ما تريد أن تجعل من المسألة خلافاً سياسياً ضعوا هذا الكلام دبر آذانكم وتجنبوا الخوض في هذا الكلام الفارغ، لأن المسألة لها أصل شرعي.

خطبة الجمعة 2014-6-27